ابن باجَّه

1082 ـ 1138م

حياته:

«ابن باجَّه» هو: أبو بكر، محمَّدُ بنُ يحيى الصايغُ. ولد في (سرقسطة) عام 475 هـ ـ 1082م، وفيها نشأ، ثم انتقل إلى (إشبيليةَ)، ثم (غُرناطةَ) مُتولِّياً مناصبَ عاليةً؛ حيث ألّفَ عدداً من الرسائل في: المنطق، والطِّبِّ، والنفس، والعقل، والإلهيات، والسياسة، ثم انتقل إلى (المغرب) ونال منزلةً عند المُرابطين.

كان «ابن باجَّه» فيلسوفاً وطبيباً بارعاً مُوفَّقاً، عالماً من علماء الطبيعة والفلك والرياضيات والموسيقى، وكان «ابن باجَّه» متميّزاً في اللغة، حافظاً للقرآن الكريم، أديباً، شاعراً، بارعاً في المديح والرِّثاء.

ويُعتبرُ «ابن باجَّه» أوّلَ الفلاسفة العقليين، أخذ الفلسفة مُنفصلةً عن الدين، معزولةً عن العامّة، ثم أقامها على أساسٍ من الرياضيات والطبيعيات. وهو أوّلُ مَن أذاع العلومَ الفلسفيةَ في الأندلس، وشُهرةُ «ابنِ باجَّه» إنَّما هي في المبادئ الفلسفية التي وضعها في الإلهيات.

وهو أشبه بـ«الفارابيِّ» من الإسلاميين، وأشبهُ بـ: «أرسطو» من القدماء. وقد حَسَدَه مُنافسوه فدَسُّوا له السُّمَّ فمات سنة 533 هـ عن عُمُرٍ لا يتجاوز السادسةَ والخمسين في مدينة (فاس) مُتَّهماً بالكفر والزَّندقة.

كان «ابنُ باجَّه» عميقَ التفكير. له عددٌ من المؤلَّفات والكتب والرسائل ضاع معظمُها، منها: شروحٌ لبعض كتب «أرسطو» في الطبيعيات، ومنها: مؤلَّفاتٌ وضعها في: الطب، والرياضيات، والفلسفة، أشهرها: رسائلُ في المنطق: (رسالة الاتصال) ـ (رسالة الوداع) ـ وكتاب (النفس) ـ وكتبٌ في السياسة المَدنيَّة، والعقل، والإلهيات.

وأهمُّ هذه الكتب كتابُ: (تدبيرُ المتوحِّد)؛ حيثُ يوجدُ فيه أكثرُ فلسفة «ابن باجَّه» وآرائه، وهو يُشبهُ (المدينةَ الفاضلةَ) عند «الفارابيِّ».

فلسفته:

إنَّ فلسفة «ابن باجَّه» هي فلسفةُ السعادة العقلية، وقد وقف ضد «الغزالي»، ورأى أنَّ الإنسان يمكن أن يتصل بالعقل الفعّال المنبثقِ من الله تعالى؛ ليصلَ إلى السعادة، فهو يقترب من «الفارابيِّ» كثيراً.

وقد ابتعد «ابن باجَّه» عن التصوُّف؛ لأنه طريق تجربة وذوق، وليس هو طريقَ إدراك عقليٍّ. لقد جعل «ابنُ باجَّه» غايةَ فلسفته السياسةُ والأخلاقُ العقليةُ، وسعى إلى تحقيقِ المدينة الفاضلة التي تتضمَّن أكبرَ عدد ممكنٍ من الحكماء والفلاسفة.

إنَّ نزعةَ «ابن باجَّه» نزعةٌ عقليةٌ تتنصر للعلم والفلسفة، وتجعلُهُما الطريقَ الوحيدَ للوصول إلى معرفة الطبيعة ومعرفة النفس.

تدبير المتوحد:

كتب «ابنُ باجَّه» رسالةَ (تدبير المتوحد)، تَعرّض فيها للمدينة الفاضلة، ووضَعها على نحوٍ مُختصَرٍ من (جُمهورية) «أفلاطون»، هذه المدينةُ والمجتمعُ الذي تَسودُ فيه الفضيلةُ، وتنتفي فيه الشرور، وذلك بفضل اتصال الأفراد المتوحدين بالعقل الفعّال، فتسود بينهم المحبة والسعادة.

أما معنى تدبير:

أي: ترتيبُ أعمال الفردِ الإنسانيِّ، وأعمالِ المجتمعِ، ترتيباً يقتضي التفكيرَ والرَّوِيَّةَ، وتوجيه هذه الأعمال نحو هدفٍ معيَّنٍ، وغايةٍ مقصودةٍ (وهي: الاتصالُ بالعقل الفعّال لتحقيق السعادة).

ومعنى المتوحِّد:

إنَّ المتوحِّد عند «ابن باجَّه» لا يعني الإنسانَ الفردَ كفرد، وإنَّما يعني الفردَ والكثرةَ والجماعةَ في توحيد القوى والأعمال الإنسانية الموجَّهةِ إلى الكمال، الذي يكون من ورائه السعادةُ المنشودةُ.

هذا هو التدبير الذي جعله عنواناً لرسالته: (تدبير المتوحد) على مثال: تدبير الحكومة الكاملة، أو المدينة الفاضلة، التي لا تحتاج إلى أطباء أو قضاة؛ لأنَّ سُكّانَها يتصفون بالقناعة، معتدلون في طعامهم وشرابهم كَمّاً وكَيْفاً، والعلاقةُ بينهم قائمةٌ على المحبة والاستقامة، بعيدةٌ عن النزاع والشجار والخصومات، فلا مُدَّعٍ، ولا مُدَّعَى عليه. فلا حاجة للقضاة؛ فهم فضلاءُ، يبلغُ الفردُ عندهم أعلى الدرجات الممكنة في الكمال، كلُّ فرد في المدينة الفاضلة مستقيمُ الرأي، لا يجهلُ قانوناً، ولا يعمل إثْماً، ولا ينقاد إلى ضلال، ولا يَشذُّ ليعملَ، ولا يَلجأ إلى تَهكُّم أو احتيال. فسنَّةُ المدينة الفاضلة الكاملة لا تحتاج إلى قُضاة ولا أطباءَ؛ لأنَّها لا تحتاج إلى أنواع الطِّبِّ الثلاثة:

1 ـ الطب النفسي.

2 ـ طب الجسد.

3 ـ طب الخُلُق.

فالأعمال الإنسانية الصادرةُ عن أفراد المدينة الفاضلة هي أعمالٌ صادرةٌ عن إرادة حُرّة، وتدبير، وتفكير، هذه الأعمال هي أعمالُ إلهية، يُسيطرُ عليها العقلُ القويمُ، بعيدةً عن أيِّ تأثير حيوانيٍّ؛ بحيث تصبح النفسُ الحيوانيةُ مناقضةً تماماً للنفس الإنسانية الفاضلة. فيصبح الإنسان يمتاز بالفضائل الأخلاقية التي تصبح سجيّةً فيه، وطبيعةً ثابتةً، أي: أنه يصبح إنساناً إلهياً ربانياً.

أما الأعمال الإنسانية؛ فهي تختلف رُتبةً باختلاف موضوعها وغايتها، فهناك:

1ـ أعمالٌ غايتها صورةُ الجسد: كالأكل، والشرب، واللباس، والجنس.

2 ـ وأعمال غايتها صور جزئية: كالاعتناء بالمظهر الخارجيِّ؛ من ثياب، وأدوات، أو أن يتعلَّم الإنسانُ لغايات جزئية؛ كالشهرة، والرياء، والسمعة.

3 ـ أعمال روحانية غايتها السعادة: فهي غايةٌ بذاتها؛ لأنَّها تُحقِّقُ روحانيةً كليةً.

فالغايات ثلاث:

1 ـ غاية جسدية: إذا اكتفى بها الإنسان لم يرتق فوق البهائم.

2 ـ غاية روحانية جزئية: يحصل بها الإنسان على الفضائل الخلقية والعقلية.

3 ـ غاية روحانية كلية: تُخوِّلُ الإنسانَ إلى الكمال الإنسانيِّ المطلق، وتُحقِّقُ له السعادةَ.

فالفيلسوف عند ابن باجَّه:

يقوم بالأعمال الجسدية طعام ـ شراب ـ لباس . . . لحفظ حياته .

ويقوم بالأعمال الروحانية الجزئية كوسيلة لتكميل كيانه الإنساني .

ويقوم بالأعمال الروحانية الكلية بوصفها غايةً قُصوى .

وهكذا يكون بالأعمال الجسدية إنساناً ، وبالأعمال الروحانية إنساناً أكمل ، وبالأعمال العقلية الكلية يكون كائناً متفوِّقاً وإلهياً . تلك هي حال المتوحِّد رجل الجمهورية الفاضلة ، ولَمّا كانت تلك غايةُ المتوحِّد ، وتلك حالُهُ فعليه أن يصاحب أهلَ العلم والمعرفة ، ويعتزلَ أهلَ الجهل ، وعليه أن يعتزلَ الناسَ جميعاً اعتزالاً تأمُّلياً عقلياً ، لا اعتزالاً صُوفياً ؛ لأن هذا الاعتزال التأملي العقليَّ لا يخالف المبدأ الفلسفيَّ القائل : بأنَّ الإنسانَ اجتماعيٌّ بالطبع ؛ لأنَّه اعتزالٌ عَرَضيٌّ .

فأعمال المتوحِّد أعمالٌ عقليةٌ تأمُّليةٌ ، أعمالُ درس ، ونظر ، وتأمُّل ، تقود المتوحِّدَ إلى العقل المستفاد الذي ينبثق عن العقل الفعّال ، ويجعل الإنسانَ يُدرِكُ ذاتَه كإنسان عقليٍّ ، أي : كجوهر معقول ، فيصبح كالعقول المفارقة التي ليست لها أيُّ صلة بالمادة ، والتي هي من ثَمَّ خالدةٌ ، فيصبح المتوحد خالداً خلود تلك العقول نفسها .

النفس عند ابن باجَّه:

ذكر «ابن باجَّه» في (رسالة الاتصال) النفسَ ، ويمكن أن نُلخِّصَ آراءَه فيها :

فـ: «ابن باجَّه» لا يُحدِّدُ النفس كما حدَّدها غيرُهُ من الفلاسفة ، فهو يدرس النفسَ التي في الإنسان ، وما يخصُّ الإنسان ، فـ: «ابنُ باجَّه» يريد أن يُوضِّحَ سبيلَ اتصال النفس الإنسانية بالعقل الفعّال ؛ لأنَّ هدف الإنسان هو الوصولُ إلى السعادة ، وسبيلُ الاتصال هو طريق المعرفة .

فالنفس : هي التي تجعل الإنسانَ واحداً وإن تغيَّرت أعراضُهُ وأحوالُهُ ، من : جنينٍ ، إلى طفلٍ ، إلى شابٍّ ، إلى كَهْلٍ ، إلى شيخٍ مُسنٍّ .

فالنفس هي المحرِّكُ الأوّلُ للإنسان ، والنفس تُحرِّكُ بصنفين من الآلات :

1 ـ آلات جسمانية : منها آلاتٌ طبيعية وهي : الغريزةُ ، واليد ، والرجل .

2 ـ آلات روحانية .

قوى النفس:

يوجد للنفس قوىً متعددةٌ، وهي:

القوة الغاذية ـ القوة النزوعية إسطقسية ـ القوة المنمية ـ القوة الحسّية ـ القوة الخيالية ـ القوة العقلية ـ القوة الروحية .

نظرية المعرفة عند ابن باجَّه:

إنَّ المعرفة عند «ابن باجَّه» لدى الإنسان تكون على ثلاث مراتبَ :

1ـ إدراك الصورة المادية بواسطة الحواس معرفة حسّية .

2 ـ إدراك الصور الروحانية بالحسّ المشترك ثم الخيال معرفة روحانية .

3 ـ إدراك الصور العقلية الفكرية بواسطة العقل معرفة عقلية .

القوة والفعل:

يقول «ابن باجَّه» : «إنَّ الإنسان يكون إنساناً بالقوة ، وذلك عند كونه طفلاً رضيعاً ما لم يَحدُث له القوَّةُ الفكريةُ ، ومتى كَبرَ ، وحصلت له القوةُ الفكريةُ أصبح إنساناً بالفعل ، والقوّةُ الفكريةُ تحصلُ له إذا حصلتَ المعقولات ، وإنَّ المحرِّكَ الأولَ هو العقلُ بالفعل ، أو المعقول بالفعل ، والعقل بالفعل هو القوة الفاعلة .

فالعقل بالفعل هو : ثواب الله ، ونعمتُهُ على مَن يرضاه من عباده ، والثوابُ والعقاب هو للنفس النزوعية الخاطئة ، فمَن أطاع الله أثابَه بهذا العقل ، وجعل له نوراً بين يديه يهتدي به ، ومَن عصاه حَجَبَه عنه ، فيبقى في ظُلُماتِ الجَهالةِ مُطبِقةً عليه حتى يُفارق الجسد محجوباً عنه (عن الله) سائراً في سخطه .

ومَن جعل اللهُ له هذا العقلَ وفارق البدن بقي نوراً من الأنوار يُسبِّحُ الله ويُقدِّسُه ، ويكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . .

ويمكن الحصول على المعقولات عن طريق :

1ـ طريق الجمهور : ويكون بواسطة المعرفة الحسية العملية .

2 ـ طريق النُّظَّار : ويكون بالمعرفة النظرية العقلية .

3 ـ طريق السعداء : ويكون بالمعرفة الشهودية اليقينية أي : رؤية الشيء ذاته .

العقل عند ابن باجَّه:

العقل في نظر ابن باجَّه عقلان:

1 ـ عقل هيولاني: هو العقل الذي يُدرك به الإنسانُ المعقولات.

2 ـ عقل فعّال: هو عقل يمنحه الله للإنسان، هو ثواب الله ونعمته على مَن يرضاه من عباده.

تلك هي فلسفة «ابن باجَّه»، وبعضُ آرائه التي هي ذاتُ صلة بآراء «الفارابيِّ»، وقريبةٌ منها، ولكن لا تخلو من الغموض. وقد أشار «ابنُ باجَّه» إلى ذلك في كتابه (رسالة الاتصال).

و«ابن باجَّه» بعيدٌ في آرائه عن «الغزالي» وفلسفته، ومهما يكن من أمرٍ فـ: «ابنُ باجَّه» يُعتبرُ رأسَ فلاسفة الأندلس؛ حيث كان له تأثيرٌ على «ابن طفيل» في رسالة (حي بن يقظان) . . وقد خَطَّ «ابنُ باجَّه» الطريقَ العقلية لأكبر فلاسفة العرب في المغرب، يعني: «ابنَ رُشد».